سويسري يوثق العنف الجزائري

حرب مكتومة بلا شواهد

ميخائيل فون غرافنريد

فتيات بربريات

استضاف مركز «أمم للتوثيق والابحاث» معرض الفنان السويسري ميخائيل فون غرافنريد، تحت عنوان «الجزائر صور عن حرب بلا شواهد». حيث يمكن القول ان الصور الفوتوغرافية في هذا المعرض تتوارى في اللغة اللاسعة، لتشكل ببصريتها للواقع الجزائري، مشهديات «محكية» تحاصر الضمائر الغائرة في قعر النسيان، وتقبض على الشهود العيان بعين الكاميرا الجاحظة.

امرأة في الشارع

بنادق الامازيغيين لصد الهجمات

من الصعوبة بمكان – تقول امم للتوثيق والابحاث – المقارنة بين الحرب التي عصفت بالجزائر، خلال التسعينيات من القرن الماضي، وتلك التي عصفت بلبنان، فما من ريب في ان هذه المقاربة البصرية لمشهد العنف الجزائري لن تخلو من تذكير اللبنانيين بأشياء وأشياء من ماضيهم القريب، ومن مغامرات العنف الاهلي التي ولغوا فيها.

المعرض، لا يندرج في جدول اعمال «امم» وحيدا في مساره، او واحدا في صنفه... بل هو يتعدى ذلك لينخرط بشكل من الاشكال في مشروع خاص بهذا المركز، وقد جرى الاعلان في هذا الصدد عن اطلاق هذا المشروع تحت عنوان «ما العمل؟ لبنان وذاكرته حمالة الحروب».

نحن اذاً، امام الصورة الفوتوغرافية التي تصطاد الحدث وتجمده خارج المسار الزمني... وأمام الشاهد الذي لا يطاوله المجرم، ولا يكذبه الدليل. من هنا فقد استطاع ميخائيل غرافنريد ان يوثق بصوره حالات الحرب والسلام، من خلال زياراته المتعددة الى الجزائر بين العام ١٩٩١ والعام ٢٠٠١، وتمكن من التقاط المقلب الآخر للمجازر والبؤس والرعب، في سياق مواكبته لمشهديات الحياة التي تشبه وميض «الفلاش» في عتمة الآلة اللاقطة.

وما يميز هذه الصور المعروضة بحجم كبير ومريح، تلك النظرة الشمولية لعين الفنان في التقاط مشهدياته. فالصورة لا تنقل حدود الموقع وشكل البطل وقصة الحدث فحسب، بل تحمل الى ذلك كله، دلالات موضوعية واجتماعية واضحة للعيان. حتى التعريفات التي كتبها الفنان الى جانب كل صورة، نراها تحفز المتلقي على استنباط المزيد من المفاهيم المستكينة في زوايا الصور.

هكذا تقول لنا الصورة في شارع حسين راي: «لا تخلو ابنية هذا الشارع من التذكير بأنماط الهندسة السوفياتية». ولا يخلو هذا الشارع من انفجار ضخم استهدف رجال الشرطة. ولا تخلو، بالمقابل، الانسانية من همة الفتيان الصغار وردود افعالهم في هذه الواقعة المفجعة... اذ سارع عدد منهم الى رفع الانقاض ومساعدة المسعفين الكبار، فيما بدا الخوف على وجه احدهم وهو يطل من موقعه مستبصرا ساحة الدمار.

ثمة صورة اخرى يرصد فيها الفنان الطريقة التي اعتمدها الامازيغيون في الرد على اعتداءات الاسلاميين... حيث حملوا بنادق الصيد ووقفوا فوق التلال لصد الهجمات. الامر الذي شكل فائدة للعزّل الذين يسكنون في امكنة نائية بعيدا عن حماية الدولة من خلال الجيش ورجال الشرطة.

اما صورة ساحة المقري، فتنقلنا في العام ٢٠٠١، الى وجود وحدة من الجيش الجزائري بقيادة الجنرال فضيل شريف، تقصف غابة يتحصن فيها مقاتلون اسلاميون، في دلالة اخرى من دلالات المجازر الهمجية التي ارتكبها التكفيريون بحق المسلمين المدنيين صغارا وكبارا، نساء ورجالا، بذريعة فتاويهم التي لا تمت الى الشريعة الاسلامية الحقة والحقيقية بصلة.

لم تقتصر العين الغنية والذكية للفنان ميخائيل على مواكبة الحدث الحربي البحت، وإنما تعدته الى الحدث الامني الايحائي، فكانت النتيجة صورة فوتوغرافية اشبه باللقطة السينمائية في فيلم من النوع «الاكشن». انها ليد ممدودة من نافذة السيارة المموهة، تعود لشرطي يرتدي ثيابا مدنية مموهة، وتمسك بمسدس لشق طريق آمن للسيارة التي فاجأها نمط من انماط الزحمة.

الى ذلك، تتنوع الصور المرصودة في الحياة الجزائرية، تنوع المظاهر الاجتماعية والعادات القبلية، والقوانين الرسمية، وتظهر لنا احدى الصور مجتمعا ريفيا لفتيات بربريات في احدى قرى جبال القبائل في الجزائر، وهن في موقع رفض القانون الصادر في العام ١٩٩٨ الذي يلزم الجميع استخدام اللغة العربية من دون غيرها، والتمسك بلغتهن البربرية.

ومن الصور التي تستريح في عين المتلقي، وتدغدغ وجدانه، صورة جامعة للرجال في صلاة الجمعة امام مسجد ابن باديس في حي القبة في العاصمة، اذ تحتفي هذه الصورة بسجود الجميع في حركة اتحادية واحدة... باستثناء رأس طفل اشرأب متطلعا الى جهة اليمين، عاكسا لغة وعي الصغار المختلفة بطبيعة الحال والمنطق عن الوعي بالحدود عند الكبار.

المعرض يوثق لحرب «الجزائر المكتومة»، ويرافقه «عرض دوري لفيلم عن «حرب بلا شواهد» الذي يوثق بدوره عودة مايكل فون غرافنريد الى الجزائر ولقاءاته ببعض من «ابطال» الصور التي اختلسها اختلاسا».

يذكر ان الفنان له رصيد في العديد من المعارض التي اقيمت في (نيويورك، باريس، هونغ كونغ)، فضلا عن الجزائر. «وفي رصيده ايضا ايواء عدد من المتاحف الكبرى لمجموعة من صوره». كما انه اصدر عددا من الكتب، بينها: «السودان، الحرب المنسية» (١٩٩٥)، «عراة في الجنة» (١٩٩٧)، «الجزائر من الداخل» (١٩٩٨) و«حب الكوكايين» (٢٠٠٥). وفي العام ٢٠٠٢ اخرج بالتعاون مع محمد السوداني فيلما وثائقيا من ٩٠ دقيقة تحت عنوان «حرب بلا صور – الجزائر، اعرف انكم تعرفون» عرض للمرة الاولى في مهرجان لوكارنو للفيلم في العام ٢٠٠٢.

غادة علي كلش

تصوير: عدنان البرجي